الحداثة الشعرية العربية المعاصرة بين الحقيقة والوهم

"قصيدة النثر أنموذجا"

د . عواد عبد القادر

كلية الآداب واللغات والفنون

جامعة جيلالي ليابس–سيدي بلعباس

لعل الحديث عن ماهية الحداثة العربية شعريا وفنيا وفكريا هو حديث مرتبط ارتباطا جوهريا بقضية الهوية والمرجعية والانتماء،أي ضرورة اشتراط البحث في جذورها و منابتها وحقيقة تربتها وعلاقتها بالحداثة الأوربية في سياقها التاريخي العام وأنساقها المعرفية والثقافية والبنيويةوالنهضوية،بل إن الحداثة العربية تُتهم بكونها سليلة هذه الحداثة الغربية المختلفة عنها تكوينيا وجينيا وحضاريا وعقائديا،على الرغم من مشروعية التلاقي والتلاقح والتثاقف والعالمية والاشتراك الطبيعي في الميراث البشري،ولكن تظل الخصوصيات والأسس والمكونات تفرض نفسها بقوة حين التأسيس لكينونة الذات بوصفها بنية مستقلة ومتحررة من الهيمنة والاستلاب والتقليد والاجترار،وفي ما تطرحه من علائق عضوية مع التراث والأصالة لا تنهض في الأصل على الانفصام والتأزم والتغريب أو الاغتراب،مع أن مصطلح الحداثة هو من المصطلحات الأكثر خلافية كما يرى عبد الرحمن منيف وذلك بسبب عدم تحديد معناه بدقة وعدم معرفة أسباب وظروف نشأته وكذا بسبب عزله عن سياقه التاريخي وطغيان إحدى دلالاته الجزئية على المفهوم[1]،حتى وإن كنا قد ألفينا البعض من النقاد والدارسين من يرى أن هذه الحداثة ليست أحادية اللغة وليست أحادية الأصل وليست مرتبطة بمرحلة زمنية واحدة،بل هي متعددة اللغات والأصول ونتاج مراحل زمنية متداخلة [2].

وعليه فإن الحداثة العربية في نشأتها المعاصرة قد تطرح عدة إشكاليات تخص الهوية والمرجعية والأصول، باعتبارها تنطوي على قدر كبير من الاختلاف الجذري مع الأسس التقليدية للثقافة والفن في الغرب،وهو ما قد يجعل العربي يسيء فهم حداثة الآخر/الغرب لأنه كما يرى أدونيس لم ينظر إليها في ضوء ارتباطها العضوي بالحضارة الغربية و بأسسها العقلانية [3]،من منطلق أن الحداثة لديه أيضا خصيصة تكمن في بنيتها ذاتها [4]،وكأن الحداثتين ليستا شيئا واحدا وليستا من رحم واحدة وأم واحدة، بل إن إحداهما فاعلة والأخرى منفعلة بحكم طبيعة كلتيهما نشوءا ومرجعية وتاريخا وواقعا،فالحداثة الغربية مثلا تنتظم في إطار المرجعية المعرفية الخاصة بتاريخها وثقافتها أي أنها تمثل الطرف الفاعل في المعادلة،في حين تمثل الثقافة العربية الطرف المنفعل الذي يتلقى الأصول وينسخها ثم يشكل في ضوئها حداثة عربية تبدو في ظاهرها مغايرة ولكنها صورة مستنسخة منها،ولذلك فإن الناقد عبد العزيز حمودة ينظر إلى الواقعين بنظرة مختلفة تماما في قوله" إن اختلاف واقع العالم العربي وهو واقع تحدده أبعاد تاريخية واجتماعية واقتصادية محددة، عن واقع العلم الغربي الذي أفرز الحداثة، يجعل نقل الحداثة الغربية بقيمها المعرفية الجديدة والمصطلح النقدي الذي تولد عنها إلى واقعنا العربي ضربا من العبث في الدرجة الأولى"[5].

لقد بات على هذا الأساس من الضروري بل من المألوف أن الحديث عن الحداثة العربية في تصوراتها وانبثاقها ومفاهيمها هو حديث عن واقع ثقافي وحضاري مختلف إن لم نقل مناقضا لواقع الحداثة الأوربية، ولعل هذه التناقض نابع من كون أن هناك واقعين ثقافيين وحضاريين متباينين ومتضادين، مع أن تناقضهما لا يعني الحرب بينهما وإنما هو تناقض منطقي نابع من اختلاف كل من الواقعين والحضارتين في تاريخهما ووقائعهما[6].

انطلاقا من هذين الواقعين والنظامين المختلفين،يمكننا أن نطرح تساؤلا جوهريا وضروريا على النحو الآتي: هل عبّر فعلا الأدب العربي المعاصر في أغلب أشكاله وأجناسه الفنية والتعبيرية وإنجازاته الحداثية عن الواقع العربي والفكر العربي والمشكلات العربية أم عبّر من حيث لا يدري عن الآخر وعن مرجعياته وأزماته وفلسفاته؟، ولعل الشاعر والمنظر الحداثي أدونيس يحاول الإجابة عن هذا التساؤل بشكل ما،حين يرى أن هذا الآخر يقيم في أعماقنا بل إن جميع " ما نتداوله اليوم فكريا وحياتيا، يجيئنا من هذا الغرب، أما فيما يتصل بالناحية الحياتية فليس عندنا ما نحسن به حياتنا إلا ما نأخذه من الغرب، وكما أننا نعيش بوسائل ابتكرها الغرب فإننا نفكر ب" لغة" الغرب: نظريات ومفهومات ومناهج تفكير، ومذاهب أدبية...الخ ابتكرها هي أيضا الغرب، الرأسمالية، الاشتراكية، الديمقراطية، الجمهورية، اللبيرالية، الحرية، الماركسية، الشيوعية، القومية...الخ، المنطق، الديالكتيك، العقلانية...الواقعية، الرومانطقية، الرمزية، السوريالية"[7]، وكأن الحداثة بهذا الشكل تعاني انفصاما عن واقعها واغترابا عن ثقافتها، كما تعاني غياب التحامها العضوي بالبناء المعرفي للثقافة العربية،فهيلاتنمو بعافية في الواقع ولا تنبع من ذوات قلقة[8]،وذلك ما يدعو أحد الدارسين إلى أن يعدّها أي الحداثة العربية بمثابة الصدى لأصوات بعيدة سواء أكانت العلاقة بين الصدى ومصدره مباشرة أم غير مباشرة[9].

وعليه فإن الحداثة الغربية تختلف جوهريا عن مفهوم الحداثة لدى العرب في كونها قامت على معارضة جدلية متعددة الأبعاد تمثلت في معارضة التراث ومعارضة الثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانية والنفعية وتصورها لفكرة التقدم،بخلاف الحداثة العربية التي لم تشهد مثل هذا الخرق الثقافي العام والجذري الشامل،لأن المجتمع العربي لم يشهد تحولات تماثل التحولات الكائنة في الغرب ومن ثمة لم تظهر في هذا المجتمع حداثة علمية و إن حداثة التغيرات الثورية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كانت هامشية لم تلامس البنيات العميقة،ولكن مع ذلك ومن المفارقات أيضا أن هناك حداثة شعرية عربية،بل إنّ الحداثة الشعرية في المجتمع العربي تكاد تصارع في بعض وجوهها الحداثة الشعرية الغربية[10]،وهو ما قد يعني أنّ الحداثة الشعرية العربية قد سبقت حركة مجتمعاتها بآماد طويلة تفصلها عنها في بعض المناطق سنوات ضوئية بحسب ما يذهب إليه صلاح فضل[11]، أي أنّ هناك نوعا من الانفصال إن لم نقل ضربا من الانفصام بين الواقع الاجتماعي والسوسيوثقافي للعربي وإبداعه الفني والشعري، إذ إن الأدب العربي قد استطاع أن يحقق شيئا في مجال الحداثة ولكن العقل العربي كما يتصور محمد بنيس فاشل في تحديد مصطلح ومفهوم الحداثة وعاجز عن متابعة التقدم المنجز في الإبداع الفني[12]،وكم نخشى في هذا السياق وفي ظل كل هذه المعطيات والأنساق التي تؤطر المفاهيم و التجارب والبنيات المعرفية للثقافتين أن نعتقد بيننا وبين أنفسنا أن هذه الحداثة العربية رغم واقعيتها ومشروعيتها ووجودها التاريخي في عصرنا هذا، يمكن اعتبارها حداثة تبعية أو استلاب أو حداثة مهرّبة بتعبير أدونيس[13] أو حداثة نخبوية كما يتصورها البعض لا تكاد تخرج من أسوار الجامعات والأكاديميين ومجموعة من المثقفين الذين يشكلون انتلجنسيا المجتمع، أو كما قد يعدها البعض على أنها حداثة مستوردة يجوز استيرادها كسائر الوسائل والمذاهب والآلات [14]،إلى حد القسوة عليها وتصويرها تصويرا هزليا جالبا للعطف حينما وصفت بأنها ليست سوى صورة كاريكاتيرية من حداثة الغرب[15].

ولعل قصيدة النثر صورة من صور هذه الحداثة في الشعر العربي المعاصر شكلا وقولا ورؤيا،بل هي إحدى محصلاتها في سعيها المتسم بالتوتر نحو التحول والتجديد[16]،وهي الشكل الفني الذي لم يلق غيره مثل ما لقي من الضجة والإثارة والنقاش حول شرعيته وأصوله وعلاقته بتاريخ الشعر العربي وانتماءاته ومرجعياته التراثية ومشروعية وجوده وحقيقة تأسيسه وصلاحية تسمياته

وصوابيتها،وقد قام حوله جدلٌ حادّ ولا زال إلى حد الخلاف،كما كان التعاملُ مع هذا الضَّرب من الشعر أو التعبير متميزا بل عنيفا من منطلق معناه اللغوي المباشر الذي أحدث نوعا من الرفض نتيجة الخلط القائم بين لفظتين مختلفتين دلاليا وهما قصيدة ونثر[17]،فكانت أبرز مشكلة تطرح في هذا الصدد مشكلةُ التسمية أو المصطلح التي أُخذت مأخذ الجد،والتي اختلف حولها الكثير من الشعراء والنقاد، فتعددت الأسماء لمسمى واحد بين رافض ومؤيد ، وهذه التي تلي بعض الأسماء التي أطلقت على قصيدة النثر منذ نشأة الشبيه عام 1905 حين كتب أمين الريحاني –كما كتب أيضا جبران خليل جبران– أول نص من نوع"الشعر المنثور" مثل: الشعر المنثور، النثر الفني، الخاطرة الشعرية،الكتابةالخاطراتية،النثر المركز، الكتابة الحرة، القصيدة الحرة،الكتابة خارج الوزن، القصيدة خارج التفعيلة، النص المفتوح، الشعر بالنثر، النثر بالشعر، الكتابة النثرية شعرا، الكتابة الشعرية نثرا، كتابة خنثى، الجنس الثالث، النثيرة، القول الشعري، النثر الشعري، قصيدة الكتلة، الشعر الأجد... [18].

فالإشكالية الأولى التي تواجهها هذه القصيدة المستحدثة أو الحداثية هي إشكالية الاصطلاح والتسمية، إلى درجة أننا نلفي أحد الدارسين يصرّ على رفضه لهذه التسمية التي التصقت بها في جمعها بين جنسين فنين مختلفين في شروطهما ومكوناتهما مؤكدا ألا سبيل إلى إقناعنا بشرعيتها إلا إذا أنقذت نفسها بنفسها بدءا من اسمها[19]،مع أن هذا المصطلح– قصيدة النثر– هو مصطلح أطلقته عليها مجلة شعر اللبنانية حاملة لواء الحداثة في الخمسينيات وذلك ما يؤكده أحد مؤسسيها وهو أدونيس– فضلا عن مؤسسين آخرين كانوا إلى جانبه كأنسي الحاج ويوسف الخال وشوقي أبي شقرا وخليل حاوي ونذير العظمة وأسعد رزوق وخالدة سعيد وعصام محفوظ وجبرا إبراهيم جبرا ومحمد الماغوط...– بقوله" ولعلنا نعرف جميعا أن قصيدة النثر وهو مصطلح أطلقناه في مجلة شعر، إنما هي نوع أدبي شعري نتيجة تطور تعبيري في الكتابة الأمريكية الأوربية"[20]،وهي التسمية التي تبدو هجينة ولاتؤمن بالأجناس واستقلاليتها،كما يمكنها أن تعصف بالحدود الأجناسية المستقرة في ذهن المتلقي وتطرح جملة من الأسئلة التي يقابلها في النهاية صمت المفهوم[21]، ولهذا فهي تقع ضمن حدود تجنيسية حرجة تدفع بالغير إلى محاولة محاكمتها واتهامها والثورة عليها والرغبة في نسفها وتسفيهها واعتبارها من أردأ وأسوأ أنواع القصائد الغربية المترجمة وكأنها دون علاقة عضوية بتاريخ القصيدة العربية[22]، بل هي في صورة أخرى تمثل عصيانا وشكلا غريبا دخيلا[23] ، وهي من الضروب الفنية الغريبة وغير المعقولة في جمعها بين المتناقضات والأضداد على الرغم من نظرة البعض إليها على أنها تقوم على وحدة هذه الأضداد أي شعر ونثر وحرية وصرامة وغيرها[24] وكأنها تمزج بين وهج الشعر وسيولة النثر كما يرى نجيب العوفي[25].

يمكن اعتبار قصيدة النثر من أحدث ما وصل إليه الإبداع الشعري العربي،بل لعلّها حاولت قطع الصلة مع هذا الشعر كله لتفتح سجلا جديدا في التعبير والكتابة والتحديث والمغايرة والتموقع بين العديد من المرجعيات والهويات والتمرد على الانتماءات والأجناس والنظام الخليلي المنضبط،ومحاولتها في تأكيد ماهية الحداثة العربية التي تتوزع بين الزيف والحقيقة أو بين التأسيس والانسلاخ أو بين الاستقلالية والاستلاب أو بين الحقيقة والوهم وجوديا وتاريخيا ومعرفيا.

الهوامش والإحالات:

1. ينظر نبيل سليمان، فتنة السرد والنقد، دار الحوار، سوريا، 1994، ص52
2. ينظر صالح جواد الطعمة، الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة، مجلة فصول،ج2،مج4، ع4، القاهرة، 1984، ص 31
3. ينظر أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب ،بيروت، 1993، ص94 – 95

4. ينظر أدونيس، فاتحة لنهايات القرن،بيانات من أجل ثقافة عربية، دار العودة للنشر، بيروت،ط1،1980،ص315
5. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة،من البنيوية إلى التفكيكية، عالم المعرفة، الكويت، 1998،ص37
6. ينظر محمد علاء الدين عبد المولى، وهم الحداثة ، مفهومات قصيدة النثر نموذجا، اتحاد الكتاب العرب،سوريا، 2005، ص10
7. أدونيس ،الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب،ج4، صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري،دار الساقي،بيروت،2006، ص258.
8. ينظر أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة، ص108
9. ينظر صالح جواد الطعمة، الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة، ص13
10. ينظر أدونيس، فاتحة لنهايات القرن...، ص322
11. ينظر صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري ،دار قباء ، القاهرة،1998، ص146
12. ينظر محمد بنيس، ندوة العدد: الحداثة في الشعر، مجلة فصول في النقد،مج3، ع 1،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982، ص202
13. ينظر أدونيس، النص القرآني وآفاق الكتابة ، ص110
14. ينظر خليل موسى، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر،مطبعة الجمهورية، دمشق، 1991،ص13
15. ينظر فاضل العزاوي، بعيدا داخل الغابة،البيان النقدي للحداثة العربية، دار المدى،دمشق، 1994، ص13
16. ينظر عزت جاد الحق، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002، ص345
17. ينظر إيمان الناصر، قصيدة النثر العربية، التغاير والاختلاف، مؤسسة الانتشار العربي،ط1،بيروت، 2007، ص51
18. ينظر عز الدين المناصرة، إشكاليات قصيدة النثر، نص مفتوح عابر للأنواع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط1،2002،ص6
19. ينظر محمد علاء الدين عبد المولى، وهم الحداثة،مفهومات قصيدة النثر نموذجا، ص21
20. أدونيس ،بيان الحداثة، مجلة مواقف،ع36،بيروت، 1980، ص132
21. ينظر زهير العلوي، إشكاليات قصيدة النثر العربية، مجلة الحياة الثقافية، ع248، تونس، 2014، ص103
22. ينظر ميخائيل نعيمة، الغربالالجديد،مؤسسة نوفل،بيروت، ط2،1978، ص127
23. ينظر محمد الصالحي، شيخوخة الخليل، بحثا عن شكل لقصيدة النثر العربية، منشورات اتحاد الكتاب المغرب، ط1، 2003،ص12
24. ينظر عبد الرحمن محمد العقود، الإبهام في شعر الحداثة، العوامل والمظاهر والآليات، الكويت، 2002، ص163
25. ينظر محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر للنشر، ص177